٧٠٤

قصة الفلسفة

من افلاطون إلى جون ديوي

حياة وآراء اعاظم رجال الفلسفة في العالم

تأليف

ول ديورانت

Türkiye Diyanet Vakfı
[illegible]
4798
109
Tasnif No. : Dur.F

ترجمة
الدكتور
فتح الله محمد المشعشع

الكتاب الذي أعيد طبعه عدة مرات
وبيع منه فوق المليون وربع المليون نسخة

منشورات
مكتبة المعارف
بيروت

الطبعة الخامسة
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

يطلب من مكتبة المعارف ـ بيروت ص. ب. ١٧٦١

جميع الحقوق محفوظة للناشر

مكتبة المعارف
بيروت

الفصل الاول

١ ـ افلاطون

اذا نظرت الى خريطة اوروبا فانك تلاحظ ان بلاد اليونان تشبه اليد التي تمتد اصابعها الملتوية الى داخـــل البحر الابيض المتوسط . والتي تقع في جنوبها جزيرة كريت العظيمة التي استولت هذه الاصابـع المنقبضة منها في الالف سنة الثانية قبل المسيح ، على بداية المدنية والحضارة . والى الشرق عبر البحر الايجي تقع آسيا الصغرى التي يسودها الهدوء والجمود الان ، والتي كانت تخفق في الايام السابقة لأفلاطون بالصناعة والتجارة والفكر . والى الغرب عبر ايونيـــا تقع ايطاليا ، التي تقف كبرج مائل نحو البحر ؛ وصقلية واسبانيا ، التي نجحت كل منها في استعمار جزء من بلاد اليونان في تلك الايام . وفي النهاية تقع اعمدة هرقل (التي نسميها اليوم جبل طارق) تلك البوابة الكئيبة المعتمة التي لم يجرو الكثير من البحارة والملاحين على اجتيازها في تلك الايام . وفي الشمال تقع تلك البلاد التي كانت في تلك الايام لاتزال نصف بربرية وغير متحضرة والتي سميت بعد ذلك باسم مقدونيا . انظر مرة ثانية الى الخريطة وسترى تضاريس لا تعـــد من السواحل ، ومرتفعات من الاراضي ، حيث تجد الخلجان والبحر في كل مكان ، وتنقلب الاراضي الى جبال وهضاب . لقد فصلت هذه الحواجز الطبيعية من الارض والبحار بلاد اليونان وقسمتهـــا الى اجزاء منعزلة ، حيث كان السفر والمواصلات في تلك الايام اكثر صعوبة ، واشد خطورة منه في هذه الأيام .

لذلك فقد تطور كل واد في بلاد اليونان الى اكتفاء اقتصادي ذاتي ، وكانت له حكومته المستقلة ، ونظمه واسلوبه ودينه وحضارته . وفي كل حالة كانت تقوم مدينة او مدينتان تمتد حولها سفوح الجبال والاراضي الزراعية ، وعلى هذا النمط كانت مدن الولايات اليونانية التي تشمل اسبارطة واثينا وغيرها . انظر الى الخريطة للمرة الاخيرة ، ولاحظ موقع اثينا : انها ابعد مدينة شرقية من المدن اليونانية وكان موقعها حسناً حيث كانت الباب الذي يخرج منه اليونانيون الى مدن آسيا الصغرى المشغولة التي عن طريقها كانت ترسل تلك المدن الكبرى حضارتها وترفها الى بلاد اليونان اليافعة . وكانت اثينا ذات ميناء كبير تجد فيه الكثير من السفن مأوى لها من امواج البحر الهائجة . ولها اسطول بحري كبير . وبين عامي ٤٩٠ – ٤٧٠ قبل الميلاد تناست اثينا واسبارطة المنافسة والغيرة التي كانت بينهما ووحدت قواتهما وجيوشهما في محاربة الفرس تحت حكم داريوس الذي اراد تحويل اليونان الى مستعمرة لامبراطورية اسيوية . وفي هذا الكفاح والصراع بين اوروبا الفتية ، والشرق الهرم ، قدمت اسبارطة الجيش بينما قدمت اثينا الاسطول البحري الحربي . وعندما انتهت الحرب سرحت اسبارطة جيوشها ، وقاست من المشاكل الاقتصادية الناجمة عن هذه العمليات العسكرية وتسريح الجيوش بينما حولت اثينا اسطولها الحربي الى اسطول تجاري واصبحت احدى المدن التجارية العظيمة في العالم القديم . وعادت اسبارطة الى عزلة زراعية . بينما تحولت اثينا الى سوق كبيرة وميناء ومكان اجتماع للكثير من الرجال ، من مختلف الاجناس والعادات والمذاهب . وحملت خلافاتهم واتصالاتهم ومنافساتهم الى اثينا التحليل والفكر والمقارنة ، حيث تبارت التقاليد وتطاحنت العقائد في هذه المراكز ذات الاختلاط المختلف الكثير . عندما يقدم لنا الف عقيدة ، يساورنا الشك في جميع هذه العقائد ، او بعبارة اوضح فان كثرة المذاهب والعقائد وتضاربها يولد الشك فيها جميعاً . وربما كان التجار اول من اظهروا شكهم وريبتهم ، فقد رأوا الكثير في اسفارهم وتعذر عليهم الاعتقاد بهذا الكثير ، كما ان ميل التجار العام الى تقسيم جميع الناس الى حمقى او اوغاد ،

جعلهم يميلون الى استجواب كل عقيدة ومذهب . وبالتدريج فقد تطور هؤلاء التجار بالعلم ، فتطور الحساب بزيادة تعقيد التبادل التجاري ، وتطور الفلك بزيادة مخاطرات الملاحة ، وقدمت الثروة المتزايدة والفراغ والراحة والامن وغيرها الأمور اللازمة في البحث والتأمل والفكر . لم يسأل الآن الناس النجوم والكواكب هديهم وارشادهم طريقهم عبر البحار فحسب ، ولكنهم سألوها عن تقديم جواب عن الغاز الكون ايضاً ، وكان اول الفلاسفة اليونان فلكيين فخورين بما انجزوا ووصلوا اليه كما قال ارسطو . اندفعوا الى ابعد الحدود بعد الحرب الفارسية ، واستقدموا جميع انواع المعرفة الى بلادهم ، وبحثوا اعظم الدراسات . وبلغت بهم الشجاعة انهم حاولوا ايجاد تفسير للحوادث التي كانت تنسب في الازمنه الماضية الى قوى ما فوق الطبيعة الخارقة والمعجزات . وافسح السحر والخرافات والطقوس الدينية طريقاً للعلم وبدأت الفلسفة . لقد كانت هذه الفلسفة في البداية فلسفة طبيعية مادية ، ونظرت الى العالم المادي وتساءلت عن اصل الاشياء النهائي . وكانت النهاية الطبيعية لهذا النوع من الافكار هي مادية ديمقرطيس (٤٦٠ – ٣٦٠) قبل الميلاد) (لايوجداي شيء في الحقيقة سوى الذرات والفراغ) لقد كانت هذه احدى الاتجاهات الرئيسية للفكر والتأمل اليوناني . وبقيت مندثرة مدة من الوقت في ايام افلاطون . ولكنها ظهرت وبرزت في أبيقور (٣٤٢ – ٢٧٠ قبل الميلاد) وتحولت الى سيل عباب من الفصاحة في ليوكريتس (٩٨ – ٥٥ قبل الميلاد) ولكن التطور العظيم الخصيب في الفلسفة اليونانية اتخذ شكلاً له في السفسطائيين ، معلمي الحكمة المتجولين والطوافين ، الذين وجهوا اهتمامهم الى طبيعتهم وافكارهم ، بدلاً من توجيهه الى عالم الاشياء . وكانوا جميعاً من اهل البراعة والحذق ، ونخص بالذكر منهم على سبيل المثال (جورجياس وهيبياس) وكان الكثيرون منهم على جانب كبير من الادراك والعمق مثل (بروتاجوراس وبروديقوس) ومن النادر ان تجد مشكلة او حلاً في فلسفتنا الحالية العقلية والمسلكية ، لم يتحققوا منه او يتناولوه بالبحث . لقد وجهوا اسئلة عن كل شيء ، ووقفوا بلا وجل امام الحرمات

الدينية والسياسية ، وأخضعوا كل عقيدة ومذهب ونظام للعقل . اما في السياسة فقد انقسموا الى مدرستين ، قالت احداهما مثل روسو ، ان الطبيعة خير والمدنية شر ، وان جميع الناس متساوون بالطبيعة ، وان النظم الطبقية المصطنعة هي التي قضت على هذه المساواة بينهم ، وفرقتهم الى طبقات ، وان القانون هو من اختراع الاقوياء من الرجال ، ليقيدوا ويحكموا الضعفاء منهم . وادعت المدرسة الاخرى مثل نيتشه ، ان الطبيعة وراء الخير والشر ، وان الناس بالطبيعة غير متساوين ، وان الاخلاق من اختراع الضعفاء لتقييد وكبح الاقوياء ، وان القوة هي الفضيلة العليا ، والرغبة العليا التي يرغب بها الانسان ، وان الدولة الارستقراطية هي الافضل والاحكم ، والاكثر تناسباً طبيعياً من جميع انواع الحكومات . لا شك ان هذا الهجوم على الديمقراطية ، يعكس ظهور الاقلية الموسرة في اثينا التي اطلقت على نفسها اسم حزب الاوليجاركية (حزب الخاصة او القلة) والتي وصفت الديمقراطية بكونها ضعيفة وعاجزة وكاذبة ومصطنعة . لم يكن هناك ديمقراطية بالمعنى المفهوم لنبذها ومهاجمتها ، لأن عدد العبيد في اثينا بلغ (٥٠٠،٠٠٠) من اصل (٤٠٠،٠٠٠) من السكان وكانوا مجردين من الحقوق السياسية من اى نوع . ومن بين الاحرار البالغ عددهم (١٥٠،٠٠٠) لم يتمكن سوى عدد قليل منهم من تمثيل انفسهم في الجمعية العامة حيث كانت تبحث وتقرر سياسة الدولة . ومع ذلك فان هذه الديمقراطية التي كانت لديهم ، كانت ديمقراطية تامة ومتقنة ولامثيل لها . لقد كانت الاكسليزيا او الجمعية العامة المصدر الأعلى للسلطة ، والجهاز الرسمي الأعلى في الدولة . وكانت الديكاستيريا او المحكمة العليا تتألف من اكثر من الالف من الاعضاء . (لجعل الرشوة متعذرة وباهظة التكاليف) وكانت تختار حسب الحروف الابجدية من سجل جميع المواطنين . لا نجد نظاما اكثر ديمقراطية من هذا النظام الذي عرفته اثينا ، ولا اكثر سخافة وبطلاناً كما كان يقول معارضو هذا النظام عنه .

وفي اثناء عصر الحروب البلوبونيزية الطويلة التي امتدت من عام (٤٣٠ ق

٤٠٤ قبل الميلاد) والتي حاربت فيها اسبارطة اثينا ، وهزمت اخيراً الاسطول الاثيني البحري . ايد الحزب الاوليجاركي بزعامة كريتياس اقصاء النظام الديمقراطي ، والتخلي عن الديمقراطية ، على اساس عجزها وفشلها في الحرب واطرى سراً على حكومة اسبارطة الارستقراطية (حكومة الاشراف او الذوات) وابعد الى المنفى الكثير من زعماء الحزب الاوليجاركي . ولكن عندما استسلمت اثينا نهائياً ، كان احد شروط الصلح الذي فرضته اسبارطة على اثينا هو اعادة هؤلاء الزعماء الارستقراطيين من منفاهم . وبمجرد عودتهم اعلنوا بزعامة كريتياس ثورة الاغنياء على الحزب الديمقراطي الذي كان يحكم اثينا اثناء نوائب الحرب . ولكن هذه الثورة اخفقت . وقتل كريتياس في ميدان المعركة والان فقد كان كريتياس تلميذاً لسقراط وعماً لأفلاطون .

★ ★ ★

٢ ـ سقراط

اذا جاز لنا ان نحكم من مشاهدة التمثال النصفي الذي وصل الينا من انقاض التماثيل القديمة ، فقد كان سقراط بعيداً عن الوسامة ، برأس اصلع ، ووجه كبير مستدير ، وعينين عميقتين ذات فراسة ، وانف كبير عريض زاهر ، لقد كان رأسه في الحقيقة اقرب الى رأس عتال ، منه الى رأس اعظم الفلاسفة شهرة . ولكننا لو نظرنا مرة ثانية ، فاننا نرى من خلال الحجر الخام الذي صنع منه هذا التمثال شيئاً من الدماثة واللطافة الانسانية والبساطة ، التي جعلت من هذا الفيلسوف والمفكر الوطني ، معلماً محبوباً من احسن شباب اثينا . اننا نعرف القليل عنه ، ومع ذلك فنحن نعرفه معرفة بالغة ، اكثر بكثير من افلاطون الارستقراطي وارسطو العالم.

ونستطيع ان نرى من وراء الفين وثلثمئة سنة هيئته الغليظة ، المكسوة دائماً بنفس الثوب المهلهل ، وهو يسير على مهله في الاماكن الطلقة ، غير مهتم بسخافة السياسة ، يمسك بتلابيب مناقشه وفريسته ، ويجمع الشباب والمتعلمين حوله ، ويستدرجهم الى احدي الزوايا المظلمه في اروقة المعبد ، ويسألهم ان يحددوا ويعرفوا كلامهم .

وكان هؤلاء الشبان يلتفون حوله في جماعات كثيرة ، ساعدته في خلق فلسفة اوروبية . وكان بينهم رجال اغنياء مثل افلاطون والسبيادس ، وكانوا يستمتعون بتحليله وهجومه وقدحه للنظام الديمقراطي في اثينا وكان من بين هؤلاء الشباب بعض الاشتراكيين مثل انتيثيناس الذي احب في سقراط عدم

اهتمامه بفقره : وواحد او اثنين من الفوضويين مثل اريستيبوس الذي تاقت نفسه الى عالم لا وجود فيه للاسياد او العبيد ، بحيث يكون سكان هذا العالم جميعهم احراراً بعيدين عن القلق مثل سقراط ، ان جميع المشاكل التي تثير المجتمع الانساني اليوم ، وتقدم مادة لنقاش الشباب الذي لاينتهي اثارت وهيجت ايضاً تلك الجماعة اليونانية الصغيرة من المفكرين والمحدثين ، الذين شعروا مع معلمهم ، ان الحياة بغير بحث وحديث ، ليست جديرة بان يعيش فيها الانسان. لقد مثلت تلك الحلقات جميع الاتجاهات الفكرية والاجتماعية ، وربما كانت هذه الاجتماعات اصل هذه الاتجاهات الفكرية الاجتماعية .

من الصعب ان يعرف احد كيف عاش سقراط . فهو لم يعمل في حياته قط ، ولم يهتم بالغد ، وكان يأكل عندما يسأله تلاميذه ان يشرف موائدهم . وهذا يدل على انهم احبوا عشرته ومرافقته . ولكنه لم يكن يستقبل في بيته استقبالاً حسناً ولم يرحب به ، لأنه اهمل زوجته واولاده ، وكان كسولاً في نظر زوجته لايصلح لشيء ، لم يوفر لعائلته من الغذاء اكثر من الخبز . لقد احبت زوجته الحديث والحوار بكثرة مثله ، ويبدو انه كان يدور بينهما حوار اخفق افلاطون في تسجيله عنهما ، ومع ذلك فقد احبته هي ايضاً ، ولم تقو على رؤيته يموت عندما تجرع كأس السم ، مع انه تجاوز السبعين من عمره . ما هو السبب في تبجيل تلاميذه له بهذا الشكل ؟ قد يكون السبب انه كان رجلاً كما كان فيلسوفاً ، فقد عرض نفسه مرة للخطر وانقذ حياة السيبيادس في المعركة ، وكان يقدر على الشرب باعتدال كإنسان فاضل نبيل بغير وجل او افراط ، ولكن لاجدال في انهم احبوا فيه اكثر اعتداله في حكمته ، فهو لم يدع الحكمة ولكن البحث عنها بشغف واهتمام ، فقد كان هاوياً للحكمة لامحترفاً لها . لقد قيل ان صوت الرب قد اعلن ان سقراط احكم اهل اليونان ، وانه فسر هذا القول على انه استحسان للأدرية التي كانت نقطة البداية لفلسفته . «لااعرف سوى شيء واحد وهو انني لااعرف شيئاً » ان الفلسفة تبدأ عندما يبدأ الانسان يتعلم الشك ـ وخصوصاً الشك